

تجارب المرفج

بقلم

جبران خليل جبران

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م

يطلب من

مكتبة لبنان

بشاعة الفيحاء بمصر

(المطبعة الرحمانية بالخرنقش بمصر)

63625

$$\frac{18}{27} = \frac{2}{3}$$

عبدالله

رفاد الاجيال

۶۶..... مرقا البانیہ۔

٤٣
يوسف المصطفى

میرزا حسن

الطبعة الثانية

1922-21321

يطلب من

بسم الله الرحمن الرحيم

بائع البخار مصر

(المطبعة الزحمانية باخر نقش بمصر)

رماد الاجيال والنار الخالدة

توطئة

(في خريف سنة ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل وورقدت الحياة في مدينة الشمس^(١)
وطفت السرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة
القائمة بين اشجار الزيتون والغار، وطلع القمر فانسكبت
أشعته على بياض الاعمدة الرخامية المنتصبة كالجارية تخفر في
هدوء الليل مذايح الالهة، وتنظر تبها وأعجاباً نحو بروج
لبنان الجالسة في الوعر على جهات الروابي البعيدة

(١) هي بعلبك أى مدينة بعل إله الشمس وقد دعاها الاقدمون
مدينة الشمس (هليوبوليس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله. وقد اتفق
المؤرخون على أنها كانت أجمل مدينة في سوريا. أما انطوائس الباقية
الى يومنا هذا فاكترها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا

الكهان والعرافين ، ولم يبق لى غير اسمك المقدس عوناً
ومساعداً فاستجيتي تضرعاً ، وانظري انسحاق قلبي ،
وتوجع عواطفى ، وابق شطر نفسى حياً بجاني ، لنفرح
بسرار محبتك ، ونسعد معاً بجمال الشيبية المعانة خفايا مجدك ،
من هذه الاعماق اصرخ اليك يا عشوت المقدسة . من
وراء ظلمة هذا الليل استجير بحنانك فاسمعي . أنا عبدك
ناثان ابن الكاهن حيرام الذى وقف عمره على خدمة
مذبحك — قد احببت صبية من بين الصبايا واتخذتها رفيقة
فخسدتنا عرائس الجان وتنفسن فى جسدها اللطيف لهات
علة غريبة ، ثم بعثن رسول المنايا ليقودها الى مغائرهن
السحرية وهما هو الآن رابض بقرب مضجعهما ، بزجر
كائن الجائع ، غنيا عليها بأجنحته السوداء ، ماداً مقابلته
الخشنة ليغتاها من بين ضلوعي ^(١) من أجل ذلك جئت
اليك متذللاً فارحميني وابقها زهرة لم تفرح بعد بجمال

(١) كانت العرب فى الجاهلية تقول : ان الجنية إذا تعشقت
فتت من الانس منعته من الزواج وان فعل سحرت عروسه أو أماتها
وهذه الاعتقادات الشعرية ما برحت حية فى بعض قرى لبنان

فى تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين
أرواح النيام وأحلام اللانهاية ، جاء ناثان بن الكاهن ودخل
هيككل عشوت ^(١) حاملاً مشعلاً وييد مرتجفة أنار
المسارج وأوقد المباخر فتصاعدت روائح المرو واللبان ،
ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الاماني
المحيط بالقلب البشري ، ثم ركم أمام المذبح المصفح برقوق
العاج والذهب ، ورفع يديه ونظر نحو العلاء ومن عينيه
الدموع تستدر الدموع ، وبصوت تخفضه الغصات الالمية
وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً : « رحماك يا عشوت
العظيمة — رحماك يارب الحب والجمال . ترأفى على وأزيلي
يد الموت عن حبيبتى التى اختارتها نفسى بمشيتك ... لقد
نبت أعاصير الاطباء ومساحيقهم ، وباطلا ضاعت تعاليم

(١) هى ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها فى صور وصيدا
وجبيل وبعليك وبعض صفاتها قولهم : « موقدة شعلة الحياة وحارسة
الشيبية » وقد أخذ اليونان عبادتها عن الفينيقيين ودعوها أفريدمت
ربة الحب والجمال والرومان يدعونها فينيس

دخل حجرة العليلة والنحنى فوق سريرها أخذاً يدها النعيلة بين يديه مقبلاً شفتيها مراراً كأنه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته، فحوت نحوه وجهها الفارق بين المساند الحريية، وفتحت أجفانها قليلاً، وظهر على شفتيها خيال ابتسامه هي بقية الحياة في جسدها اللطيف، هي آخر أشعة من نفسها المودعة - هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف. ثم قالت ومقاطع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع « قد نادتنى الالهة يا عريس نفسي، وجاء الموت ليفصلني عنك، فلا تجزع لأن مشيئة الالهة مقدسة ومطالب الموت عادة. أنا ذاهبة الآن وكأنا الحب والشيبه مابرحا طافحين في أيدينا، ومسالك الحياة الجميلة مازالت منبسطة أمامنا. أنا راحلة يا حبيبي الى مسارح الارواح وسوف أعود الى هذا العالم لأن عشوت العظيمة ترجع الى هذه الحياة أرواح المحبين الذين ذهبوا الى الأبدية قبل أن يتمتعوا بملذات الحب وغبطة الشيبه^(١)

(١) قال نبي الاسلام (صلم) : « كنتم أمواتاً فأحياكم ثم

صيف الحياة، وظائرًا لم يكمل تغريدة مسرته لجبي، فجر الشيبه. اتقذيرها من بين أظافر الموت فنبهج بأغاني مدائحك مقدمين المحرقات لجحد اسمك، ناحرين الضحايا على مذبحك مائتين بالخير القديم والزيت المطيب آنية خزنائك، فارشين بالورد والياسمين رواق هيكاك، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تماك. خلصها يارب المعجزات ودعي الحبة تغلب الموت فأنت ربة الموت والحبة وسكنت دفيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد نهيداً. ثم عاد فقال : « اواه لقد تضعضعت أحلامي بأعشوتروت المقدسة وذابت حشاشتي ومات قلبي في داخلي والتهبت دموعي في عيني فاحيدي بالرافة وابق لي حبيتي » ودخل اذ ذاك عبد من عبده واقترب منه ببطء وهمس في أذنه هذه الكلمات : لقد فتحت عينيها ياسيدي ونظرت حول مضجعها فلم ترك ثم نادتك بلحاجة فجئت لادعوك اليها»

فقام ناان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه . ولما بلغ صرحه

قافلة من المشرق أخبر زعيمها بأنه رأى ناثان تأنها في البرية البعيدة هائما مع أسراب الغزلان

مرت الأجيال ساحة بأقدامها الخفية أعمال الأجيال وبعدت الآلهة عن البلاد وحل مكانها آلهة غضوب يلذ لها الهدم ويهجمها التخريب ، فدكت هيكل مدينة الشمس الفخمة ، وتقوضت قصورها الجميلة ، وبست حداثها النضرة ، وأجذبت حقولها الخصيبة . ولم يبق في تلك البقعة غير طلل بال يعيد للذكرى أشباح الأمس فيؤلها ، وجمع للنفس صدى تهليل المجد القديم فيحزنها . ولكن الأجيال التي تمر وتسحق أعمال الإنسان لا تقني أجلامه ، ولا تضعف عواطفه . فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلبي الخالد ، وقد تتوارى حيناً وتهجم آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل والقمر عند مجيء الصباح ...

سوف نلتقي ياثان ونشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعة الشمس ، الى اللقاء

يا حبيبي

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة اقاح ذابلة أمام نسيمات الفجر ، فضمها حبيبها وبلل عنقها بالعبرات ولما قرب شففيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج فصرخ صراخاً هائلاً ومزق ثوبه وارتمى على جنبها الهامدة وروح المتوجة تراوح بين لجج الحياة وهاربة الموت في هدهوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدتين وجزعت نساء الحي وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطنت ملابس الدجى بنواح موجه وبكاء مر وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشروت . ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزوه ويؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه . ويعد ايام جاءت

يمسككم ثم يحبسكم ثم اليه ترجعون » وقال بوذا الهندي « كننا بالامس في هذه الحياة وقد جئنا الآن وسوف نفود اليها حتى نصير كاملين مثل الآلهة »

الانسان وتعاليمه، واتسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه،
وانبسطت له خفايا الأسرار، فانفردت نفسه عن موكب
الزمن المتسارع نحو اللاشيء، ووقفت وحدها أمام الأفكار
المتناسقة والخواطر المتسابقة، ولأول مرة في حياته عرف
أوكاد يعرف أسباب الجماعة الروحية الملاحقة شبيبته. تلك
الجماعة التي توحد بين حلاوة الحياة ومراراتها. ذلك الظمأ
الجامع بين تأوه الحنين وسكينة الاستكفاء. ذلك
الشوق الذي لا تزيله أعجاد العالم ولا تننيه مجاري العمر.
لأول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها
خرائب الهياكل. عاطفة رقيقة هي من الذكري بمنزلة
البخور من الجامر. عاطفة سحرية قد انعكفت على حواسه
انعكاف أنامل الموسيقى على صفوف الأوتار. عاطفة جديدة
قد انبثقت من اللاشيء، أو من كل شيء، ونمت وتدرجت
حتى عانقت كليته المعنوية وملأت نفسه بشغف مدنف
بلطفه وتوجع مستعذب يمارته مستطيب بقساوته، عاطفة
تولدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس ومن دقيقة واحدة

٢

في ربيع سنة ١٨٩٠ لحيي، يسوع الناصري
توارى النهار واضمحلت النور ولت الشمس وشاحها
عن سهول بعلبك فعاد علي الحسيني^(١) امام قطعة نحو
خرائب الهيكل وهناك جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها
اضلعت جندي متروك مرقها الهيجاء وجردتها العناصر،
فربضت أغنامة حوله مستامنة بانغام شبابتها
انتصف الليل، وألقت السماء بذور الغد في أعماق
ظلمته، فتعبت أجفان علي من أشباح اليقظة. وكلت عاقلته
من مرور مواب الخيالات السائرة بسكينة مخيفة بين
الجدران المهدومة، فاتكأ على زنده، فاقترب النعاس ولامس
حواسه باطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف
وجه البحيرة الهادئة، فذسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته
المعنوية الخفية المفعمة بالأحلام الترفعة عن شرائع
(١) الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك
في أيامنا هذه

حياة فتى ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرى قطعاً
من الغنم في البرية ؟
قام علي ومشى بين الحجارة المتقوصة وتذكاراته البعيدة
ترجح أغشية النسيان عن مخيلته مثلاً تزيل الصبية نسيج
العنكبوت عن بلور مرآتها . حتى إذا ما بلغ صدر الهيكل
وقف كأن في الأرض جاذباً يتمسك باقدامه فنظر وإذا به
أمام تماثيل مهشم ملقى على الحضيض فرجع بجانبه على غير هدى
وعواطفه تندفق في أحشائه مثلاً يتسارع نريف الدماء من
جوانب الكلاوم البليغة ، ونضبات قلبه تتكاثر وتتهامل مثل
أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة . نخسع بصره وتأوه بمرارة
وبكى بكاء أليماً لأنه شعربو حدة جارية وبعاد متلف فاصل
بين روحه وروح جميلة كانت بقر به قبل مجيئه الى هذه الحياة .
شعر بان جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة
فصلها الله عن ذاته قبيل ابتداء الدهر . شعر بخفيف اجنحة
لطيفة ترفرف بين اضلعه الملتببة وحول لفائف دماغه المنحلة
شعر بالحلب القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك انفاسه . ذلك

تتولد رسوم الأجيال مثلاً تتناسل الأمم من نطفة واحدة
نظر علي نحو الهيكل المهديم وقد تبدل النعاس بيقظة
روحية فظهرت بقايا المذبح الخدشة والاضحت أما كن الاعمدة
المرقمية وأسس الجدران التداعية فجمدت عيناه وخفق قلبه ،
ومثل ضرب راعي عاد النور الى عينيه فجأة فصار يرى ويفتكر
ويتأمل - يفكر ويتأمل - ومن تموجات التفكير ودوائر
التأمل تولدت في نفسه أشباح الذكرى فتذكر - تذكر
تلك الاعمدة منتصبية بفخر وعظمة . تذكر المسارج والمباخر
الفضضية محيطة بتمثال معبودة مهابة . تذكر الكهان الوقورين
يقدمون الضحايا أمام مذبح مصفح بالعاوج والذهب . تذكر
الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنمين بمدائح ربه الحب
والجمال . تذكر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتسكربة .
وشعر بتأثيرات غوامضها تحرك سواكن أعماقه . ولكن
الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي تراها فيما غير من
أعمارنا ولا ترجع الى مسامعنا الاصدى الاصوات التي وعثها
آذاننا ، فآية علاقة بين هذه التذكارات السحرية وماضي

هو حلم سعى في سكينته الليل ليسخر بعواطفه، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل وستبقى إلى آخر الدهر »
 اغمض علي أجفانه المغلقة بالدموع ومد يديه كالمتمسول المستعطف وارتعشت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطعة المؤلفة بين تذال الشكوى وحرقة الشوق، وبصوت لا يميزه عن التنهد غير رنات الالفاظ الضعيفة هتف قائلاً:
 « من أنت أيتها القريبة من قلبي، البعيدة عن ناظري، الفاصلة بيني وبينى. الموثقة حاضري بأزمته بعيدة منسية، أليف حورية جاءت من عالم الخلود ليبيّن لي بطل الحياة وضعف البشر أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الارض لتسرق مني عاقتي وتجمعني سخرية بين فتیان عشيرتي؟ من أنت وما هذا الفتون المميت المحي القابض على قلبي. وما هذه الشواعر المألثة جواحي نوراً ناراً؟ ومن أنا وما هذه الذات الجليدة التي ادعوها « أنا » وهي غريبة عني؟ هل تجرعت ماء الحياة مع دقات الاثر فصرت ملاكاً

الحب الذي يبيح مكنونات النفس للنفس ويفصل بتفاعله بين العقل وعالم المقاييس والكلمية. ذلك الحب الذي نسمعه متكلاً عند ما تخرس السنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عند ما تحجب الظلمة كل الاشياء. ذلك الحب، ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس علي الحسيني وأيقظ فيها عواطف حلوة ومررة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الاشواك.

ولكن ماهذا الحب، ومن أين أتى، وماذا يريد من فتي رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة؟ ماهذه الحجر السائلة في كبد لم تحركه قط لو احظ الصبايا. وما هذه الاغنية السماوية المتوجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء؟

ماهذا الحب ومن أين أتى وماذا يريد من علي المشغول عن العالم باغنامه وشبابته؟ هل هي نواة القتها محاسن بدوية بين اعشار قلبه على غير معرفة من حواسه، أم هو شعاع كان محتجباً بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه؟ هل

كان علي يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن
صدى نغمة متباعدة في أعماق صدره وبين ناظره ومحيطه
تنسل أشباح الليل كأنها أنجرة متولدة من مدامعه
السخينة وعلى جدران الهيكل تتمثل له صور سحرية
بالوان قوس القزح
كذا مرت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغبوط بلوعته ،
سامع نبضات قلبه ، ناظر إلى ما وراء الأشياء كأنه يرى رسوم
هذه الحياة تضمحل ببطء ويحل مكانها حلم غريب بحاسنه
هائل بهواجسه ، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء مترقباً هبوط
الوحي صار ينتظر ما في الدقائق ونهيدة المسرعة توقف
أنفاسه الهادئة ونفسه تركه وتسبح حوله ثم تعود إليه كأنها
تبحث بين ذاك الخرائب عن ضائع عزيز

* * *

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسيماته ، وسال
النور البنفسجي بين دقائق الأثير ، وابتسم الفضاء ابتسامه
(٢ - عرائس المروج)

أرى واسمع خفايا الأسرار أم هي خمرة وساورس سكرت
بها فتعاميت عن حقائق المعقولات «
وسكنت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال :
« يامن تدينها النفس وتدينها ، ويحببها الليل ويقصيبها ،
— أيتها الروح الجميلة الحاة في فضاء أحلامي ، قد أيقظت
في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت
أطباق الثلج ، ومررت كالنسيم الحامل أنفاس الحقول ولا مست
حواسي فاهترت واضطربت كأوراق الأشجار ، دعيني أراك
ان كنت لأبسة من المادة ثوبا . أومري النوم أن يغمض
أجفاني فأراك بالنام ان كنت معتوقة من التراب . دعيني
المسك . اسمعيني صوتك . من في هذا النقاب الحاجب كليتي
واهدي هذا البناء الساتر الوهيتي وهبي جناحاً فأطير وراءك
الى مسارح الملا الأعلى ان كنت من سكانها أو لامسي
عيني بالسحر فاتبعك الى مكانن الجان ان كنت موت
عرائسها ، ضعي يدك الخفية على قلبي وامتلئكيني ان كنت
حرباً باتباعك »

امتصاص غدوتها، وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع على بياض صوفها، ولم تمر دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ومثل راقده اجفلته أشعة الشمس تحرك وتلفت حوله فوأي صبية قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرة على كتفها وتتقدم على مهل نحو الغدير وقد بلل الندى أقدامها العاريتين . ولما بلغت حافة الجدول وانحنى لتملا جرتها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتفت عينها بعيني علي فشقت ودرمت بالجرة ثم راجعت قليلا إلى الوراء وشخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه ... مرت دقيقة كانت ثوانها مثل مصاييح تهدي قلبيهما إلى قلبيهما، مبتدعة من السكينة انغاما غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكارات مبهمة وتبين الواحد منهما الآخر في غير ذلك المكان محاطا بصور وأشباح بعيدة عن ذلك الجدول وتلك الاشجار، فكان كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة الاستعطاف ويتفرسه مستنظفا ما لمح مصغيا تهيداته بكل ما في عواطفه من المسامح، مناجيا إياه بكل ما في نفسه

نأتم لاح له في الحلم طيف حبيبته، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب، وصارت تنتقل بين تلك الأعمدة وترنم وتتناجي متنبئة بما في النهار، فانتصب علي واضعا يده على جبهته المتهبة ونظر حوله بطرف جامد، ومثل آدم عند ما فتحت عينيه نفخه الله صار ينظر مستغربا كل ما يراه. ثم اقترب من نعاجه ونادها فقامت وانتفضت ومشت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء.

سار علي أمام قطيعه وعينه الكبيرتان محدقتان بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفه عن الحسوسات تبين له غوامض الوجود ومستتراته، وترى ما غبر من الاجيال وما بقي منها بلمحة واحدة، وبللمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد إليه الشوق والحنين، فيجد ذاته منعجبا عن روح روحه انحجاب العين عن النور، فيتهجد ومع كل تهيدة تذسلخ شعلة من فؤاده المتقد

بلغ الجدول المذيع بخبره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت أغصان الصفصاف المتدلية إلى المياه كأنها تروم

ولما بلغنا طرف الوادي وكانت الشمس قد طلعت وألقت على تلك الروابي رداء مذهباً جلسا بقرب صخرة يحتمي البنفسج بظلها، وبعد هنيهة نظرت الصبية في سواد عيني علي وقد تلاعب النسيم بشعرها كأن النسيم شفاه خفية تروم تقبيلها، وشعرت بأنامل سحرية تداعب لسانها وشفقتها أسراراً رادتها، فقالت وفي صوتها حلاوة جارحة :

« قد أعادت عشروت روحيها إلى هذه الحياة كيلا

نحترم ملذات الحب ومجد الشيبية يا حبيبي »
 فانغمض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته من ذلك المكان وأوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير ملقى عليه جسمان امرأة جميلة أخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها فصرخ ملتماحاً من هول المشهد ثم فتح أجفانه فوجد تلك الصبية جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لحظها أشعة الحياة فأشرق وجهه

من الألسنة، حتى إذا ماتم التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر علي الجدول مجذوباً بقوة خفية واقترب من الصبية وعانقها وقبل شفتيها وقبل عنقها وقبل عينيها فلم تبد حراكين ذراعيه كأن لذة العناق قد انزعجت منها إرادتها، ورقة الملامسة قد أخذت منها قواها فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموجات الهواء، وألقت رأسها على صدره كتمعوب وجد راحة وتهدت تهيدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوارح كانت راقدة فأفاق، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى عينية نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة لغة الأرواح - نظرة من لا يرضى بأن يكون الحب روحاً في أجساد من الألفاظ

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحداً نية كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوجي المحبة، وعين مبصرة مجد السعادة، تتبعهما انحراف مرتعية رؤوس الأعشاب والزهور، وتقابلها المصافير من كل ناحية مرثاة أغاني السحر

مرتا البانينة^(١)

مات والدها وهي في المهد، وماتت أمها قبل بلوغها
 العاشرة، فتركت يتيمه في بيت جار فقير يعيش مع رفيقته
 وصغارهم من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة
 بين أودية لبنان الجميلة
 مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين
 أشجار الجوز والخور، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع
 الأسى وذل التيم، فباتت غريبة في أرض مولدها، وحيدة
 بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة، وكانت تسير
 في كل صباح عارية الاقدام رثة الثوب وراء بقرة حلوب إلى
 طرف الوادي حيث المرعى الخصب وتجلس بظل الأغصان
 مترنمة مع العصافير، باكية مع الجدول، حاسدة البقرة على

(١) نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان

وانتعشت روحه وتضعضت خيالات رؤياه ونسي
 الماضي وما تيه...

تعاقد الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا
 ونام كل منهما ملتفاً بذراعي الآخر إلى أن مال الظل
 وأيقظتهما حرارة الشمس

إليه غير معروف جالس بين الأرض والشمس
نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الأهلة نكاد
لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان
قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة
تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً وتقاًوة ، تلك
الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع مثقلة
في الصيف ، مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء متشبهة
بأمننا الطبيعية في كل أدوارها ، نحن أكثر من القرويين
مالاً وهم أشرف منا نفوساً ، نحن نزرع كثيراً ولا نحصد
شيئاً ، أما هم فيحصدون ما يزرعون ، نحن عبيد مطامعنا ،
وهم أبناء قناعتهم ، نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة
اليأس والخوف والممل وهم يرتشفونه صافياً ...

بلغت مرتنا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة
صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلوبها شبيهاً بخلايا الوادي
يرجع صدى كل الاصوات ... ففي يوم من أيام الخريف
المملوءة بتأوه الطبيعة جلست بقرب العين المنعقدة من أسر

وفرقة المأكّل ، متأملة بنمو الزهور ورفرفة الفراش . وعندما
يغيب الشمس ويضئها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ
وتجلس مع صبية وليها ملهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار
الجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثم تفرش القش
اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متمهدة متمنية لو كانت
الحياة كلها يوماً عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة .
وعند مجيء الفجر ينهرها وليها لقضاء حاجة فتهب من
وقادها مرعدة خائفة من سخطه وتعنيفه

كذا مرت الاعوام على مرتنا المسكينة بين تلك الروابي
والأودية البعيدة فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها
العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في أعماق
الزهرة ، وتتأهبها الأحلام والهواجس مثلما تتأهب القطعان
مجاري المياه ، فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة
عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام
الاختبار ، وذات نفس كبيرة ظاهرة منفية بحكم القدر إلى
تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظل

وقد سرت في عروقه حمرة الشيبية وتغيرت نظراته وقال :

« لا لاتذهبي » فوقفت في مكانها مستغرقة شاعرة بوجود

قوة في صوته تمنعها عن الحراك . ولما اختلست من الحياء

نظرة إليه رآته يتأمل بها باهتمام لم تفقه له معنى ، ويتسم

لها بلطف سحري يكاد يبكيها العذوبته ، وينظر بمودة وميل

إلى أقدامها العاريتين ومعصمها الجميلين وعنقها الاملس

وشعرها الكثيف الناعم ، ويتأمل بافتتان وشغف كيف قد

نوحت الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها ، أما هي

فكانت مطرقة خجلا لا تريد الانصراف ولا تقوى على

الكلام لاسباب لاتعرف مفادها

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى

الخطيرة ، أما مرنا فلم ترجع ، ولما عاد وليها من الحقل بحث

عنها بين تلك الوهاد ولم يجدها . فكان يناديها باسمها ولا يجيبه

غير الكهوف وتأوه الهوايين الاشجار ، فرجع مكتئبا إلى

كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل

وكانت تقول في سرها « قدر أيتها مرة في الحلم بين أظافر

الأرض العتاق الأفكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب

أوراق الأشجار المصفرة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب

الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت

ويست قلوبها حتى أشققت وأصبحت تستودع التراب

بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى أيام النورات

والحروب

ويدماهي تنظر إلى الزهور والاشجار ، وتشعر معها

بالم فراق الصيف سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي

فالتفت وإذا بفارس يتقدم نحوها ببطء . ولما اقترب من العين

وقد دلت ملامحه وملا بسه على ترف وكياسة ، ترجل عن ظهر

جواده وحياها بلطف ما تعودته من رجل قط ، ثم سألها

قائلا : « قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل فهل لك

أن تهديني أيتها الفتاة » فأجابت وقد وقفت منتصبية كالغصن

على حافة العين : « لست أدري ياسيدي ولكنني اذهب

وأسأل وليي فهو يعلم » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد

اكسبها الحياء جمالا ورقة : وإذا هممت بالذهاب أوقفها الرجل

وتجمله بقطة قاسية، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكاء بين أحلام الشيبية ولذة المعرفة مثلاً يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلة ابن آدم والانسانية كتابه والحياة مدرسته؟ هل يجيء ذلك اليوم؟ لاندري ولكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحي، وذلك الارتقاء هو أدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدراار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة النزل أتأمل العراق المستمر في ساحة المدينة واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمأكول، اقترب مني صبي ابن خمس يرتدى اطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور، وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث والانكسار الاليم قال: «أشترى زهراً ياسيدي» فنظرت الى وجهه الصغير المصفر، وتأملت بعينه المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة، وفه المفنوح قليلاً كأنه جرح عميق في صدر متوجع، وذراعيه العاريتين

وحش كاسر يمزق جسدها وهي تبسم وتبكي»

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرثاني تلك المزرعة الجميلة وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها منذ كانت طفلة حتى شبت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة ولها وذكري رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ثم تضمحل كأنها لهات طفل على بلور النافذة

٢

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان، وقبل دخولي المدرسة قضيت أسبوعاً كاملاً أتجول مع اترابي في المدينة متمتعين بعبطة الحرية التي تعشقها الشيبية وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة، ومثل عصافير رأيت أبواب الاقفاص مفتوحة أمامها فصار تسمع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد. الشيبية حلم جميل تسرق غدوته معميات الكتب

فهنر رأسه الصغير كمن يجهل معنى الود الفقلت « وأين أمك .
 يا فؤاد » قال : « مريضه في البيت »
 تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي .
 وامتصتها عواطف مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة
 لاني عرفت بلحظة أن مرثا المسكينة التي سمعت حكايتها
 من ذلك القروي هي الآن في بيروت ومريضه . تلك
 الصبية التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الودية هي
 اليوم في المدينة تعاني مفضل الفقر والوجاع ، تلك اليتيمة
 التي صرفت شببتها على اكف الطبيعة ترى البقر
 في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة
 وصارت فريسة بين أظافر التعاسة والشقاء
 كنت أفكر وأتخيل هذه الاشياء والصبي ينظر الي
 كأنه رأى بعين نفسه الظاهرة انسحاق قلبي . ولما أراد
 الانصراف أمسكت بيده قائلاً : « سربي الى أمك لاني
 أريد أن أراها » فصار أمامي صامتاً متعجباً ومن حين الى آخر صار
 كان ينظر الى الوداء ليري ما اذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته

النحيلتين ، وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور
 كأنها عصن من الورد الاصفر الذابل بين الاعشاب
 النضرة — تأملت بكل هذه الاشياء بلمحة مظهراً شفقتي .
 بابتسامات هي أمر من الدموع . تلك الابتسامات التي
 تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها
 وشأنها التصاعدت وانسكبت من ما قينا . ثم ابتعت بعض
 زهوره وبغيتي ابتاع محادثته لاني شعرت بأن من وراء
 نظراته المحزنة قلباً صغيراً يسترفصلاً من مأساة الفقراء الدائم
 تمثيلها على مسرح الايام قل من بهم يشاهدتها لانها موجودة .
 ولما خاطبته بكلمات لطيفة استمأ من واستأنس ونظر الي
 مستغرباً لانه مثل أتوا به الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام .
 من الفتيان الذين ينظرون غالباً الى صبية الازقة كاشياء قذرة .
 لاشان لها وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر .
 وسأله اذ ذاك قائلاً : « ما اسمك » فأجاب وعينه مملوطة
 في الارض : « اسمي فؤاد » قلت : « ابن من أنت وابن
 أهلك » قال : « أنا ابن مرثا اللبنانية » قلت : « وابن والدك »

إذ ذاك بين اللحف الرثة، وبصوت مومج يلاحقه ألم النفس
والتهديدات المرة قالت: «ماذا تريد يا رجل هل جئت
لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دتسة بشهواتك. اذهب غني
فالازقة مشحونة بالنساء اللواتي بيعنك أجسادهن ونفوسهن
بالجنس اللثامات. أما أنا فلم يبق لي مالا يبعه غير فضلات
أنفاس متقطعة عما قريب يشترىها الموت براحة القبر»
فأقربت من سربرها وقد آلمت كل آلتها قلبي لانها
مختصر حكايتها التعمسة وقلت متمنيا لو كانت عواطف تسيل
مع الكلام «لا تخافي مني يا مرنا فانا لم أجيء اليك كحيوان
جائع بل كإنسان متوجع. أنا لبناني وقد عشت زمنا في
تلك الاودية والقرى القريبة من غابة الارز. لا تخافي مني
يا مرنا»

سمعت كلامي وشمرت بانها صادرة من أعماق نفس
تتألم معها فاهترت على مضجعتها مثل التضيبان العارية أمام
دياح الشتاء، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد أن
(٣ — عرائس المروج)

في تلك الازقة القذرة حيث يجتمر الهواء بأنفاس
الموت، بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الاشرار
جرائمهم مخبئين بستائر الظلمة. في تلك المنعطفات الملتوية
الى اليمن والى الشمال التواء الافاعي السوداء كنت أسير
بخوف وهيب وراء صبي له من حدائته ونقاوة قلبه شجاعة
لا يشعر بها من كان خيرا يكاد أجلاف القوم في مدينة
يدعوها الشرقيون عروس سوريا ودرة تاج السلاطين حتى
إذا ما بلغنا أذبال الحي دخل الصبي بيتا حقيرا لم تبق منه
السنون غير جانب متداع، فدخلت خلفه وطرقات قلبي
تتسارع كلما اقربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء
ليس فيها من الاثاث غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام
أشعته الصفراء، وسرير حقير يدل على عوز مبرح وفقر
مدقع، منظر حة عليه امرأة نائمة قد حولت وجهها نحو
الحائط كأنها تخشى به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين
حجارتها قلبا أرق والين من قلوب البشر، ولما اقربت الصبي
منها مناديا يا امه التفتت اليه فرائه يوءى نحوي فتحركت

من الميوب .. أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب مني لأن الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك عنها ان فعلت. ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الاودية المقدسة لان النعجة الجرباء تذكر هاراعها خوفاً على قطيعه. واذا ذكرتني قل قد ماتت مرثا البانية ولا تقل غير ذلك « ثم أخذت يدي ابنا الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متهددة: « سوف ينظر الناس الى ولدي بعين السخرية والاحتقار قائلين هذا عمرة الاثم ، هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار ، هذا ابن الصدف — سوف يقولون عنه أكثر من ذلك لانهم عميان لا يبصرون وجهلاء لا يدرون بان أمه قد طهرت طفولته بلواعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقاها. سوف أموت واتركه يتما بين صبيان الازقة ، وحيداً في هذه الحياة القاسية، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلاً ، فان حفظته السماء وشب رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي جنى عليه وعلى أمه ، وان مات وتخلص من شبكة السفين وجدني

تستر ذاتها من أمام الذكري الهائلة بحلاوتها المرة بجمالها. وبعد سكرينة ممزوجة بالتأوه ظهر وجهها من بين كتفها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور منتصب في فضاء الغرفة، وشفتين يابستين تحر كهما ارتعاشات اليأس ، وعناقاً ترد فيه حشرة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يئنه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والالام قالت : « جئت محسناً مشفقاً فلتجزيك السماء غني ان كان الاحسان على الخطاة براؤ الشفقة على المردولين صلاحاً. ولكنني أطلب اليك ان تعود من حيث أتيت لان وقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمة وحنانك علي يثمر لك عيباً ومهانة. ارجع قبل ان يراك أحد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة باقدار الخنازير ، وسر مسرعاً سائراً وجهك بأوابك كيلا يعرفك عابر الطريق. ان الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد الي طهارتي ، ولا تمحو عيوني ، ولا تزيل يد الموت القوية عن قلبي . أنا منفية بحكم تعاسي وذنوبي الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تذكرك

أخرى ، بل تزيده لمعاناً . ولكن ويل للهشيم إذ تأتي النار وتلهيمه وتجعله رماداً ثم تهب الرياح وتذريه على وجه الصحراء . إي يامرتا أنت زهرة مسحوقه تحت أقدام الحيوان المختبي في الهياكل البشرية . قد داستك تلك النعال بقساوة لكنها لم تخف عطرك المتصاعد مع نواح الارامل وصراخ اليتامى وتهديدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . تعزي يامرتا بكوكبك زهرة مسحوقه ولست قدما ساجدة » كنت أتكلم وهي مصغية وقد أنارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم . ثم أومأت إلي أن اجلس على جانب السرير ففعلت مسائل ملامحها المتكلمة عن مخبات نفسها الحزينة . ملامح من عرف أنه ماثت . ملامح صبية في ربيع العمر قد شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالي . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوة ، فصارت اليوم مهزولة تترقب الانشقاق من قيود الحياة . وبعد سكبينة مؤثرة جمعت فضيلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها

مترقبة قدومه هناك حيث النور والراحة » فقلت وقلبي يوحى الي : « لست كالابرص يامرتا وإن سكنت بين القبور ولست دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين . أن أدرا أن الجسد لا تلامس النفس النقية والثلوج المتراكمة لا تمت البذور الحية ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلتها : ولكن وبل للسنا بل المتروكة خارج البيدر ، لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها فلا تدخل أهراء رب الحقل . أنت مظلومة يامرتا وظالمك هو ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . أنت مظلومة ومحتقرة وخير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً ، وخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قوياً ساحقاً بمقابطه زهور الحياة ، مشوهاً باميساله محاسن العواطف . النفس يامرتا هي حاققة ذهبية مفروطة من سلسلة الالهية فقد تهصر النار الحامية هذه الحلقة وتغير صورتها وتمحو جمال استدارتها لكنها لا تحيل ذهبها الى مادة

الليل طالبا الرجوع الى الفضاء الواسع . . . في ذلك البيت المنفرد تركنى الظلوم ورضيقي تقاسى مضض الجوع والبرد والوحدة ، لاعمين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سهر سوى الخوف والهواجس . . . وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي بخاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغي ابتغاء العرض بالمال وأعطاء الخبز لقاء شرف الجسد . . . أه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبدية ، ثم افلتتها لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكى بها كان ولدي الذي بعده السماء عنها الى هذه الحياة منلما اقصتني عن الحياة والفتني في أعماق هذه الهاوية . . . والان هو ذا الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني الى مضجعه الناعم »

وبعد سكونية عميقة تشابه مس الأرواح المتطاهرة رفعت عينها الحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء : « أيها العدل الخفي ، الكامن وراء هذه الصور الخفيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قاي التهامل ، منك

نقوسها تنبعث مع أنفاسها : « نعم أنا مظلومة . أنا شهيدة الحيوان المحتجب ، في الانسان . أنا زهرة مسحوقة تحت الاقدام . كنت جالسة على حافة ذلك ينبوع عند ما مر راكباً . . . قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي اني جميلة وأنه قد أحبنى فلا يتركني ، وان البرية مملوءة وحشة والودية هي مساكن الطيور وبنات آوى . . ثم ألوى علي وضمني الى صدره وقبلني ، وكنت لم أدق لتلك الساعة طعم القبله لاني كنت يتيمة متر وكة . . اردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي الى بيت جميل منفرد ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمأكلا اللذيذة والمشارب الطيبة . . . فعل كل ذلك مبتسما سائراً بشاعة أمياله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبة . . . وبعد ان أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذل نفسي غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الاوجاع ومرارة العويل . . . وهكذا قسمت حياتي الى شطرين شطر ضعيف متالم وشطر صغير يصرخ في هدوء

ولم يقبلوا أن تروح عظامها في الجبانة حيث الصليب يختر
القبور ، ولم يشعها الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفي
آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة .

والتفت
الى

وحداك اطلب ، واليك انضرع ، فارحني وارح بيمناك ولدي
واستلم يديراك روي «
وخارت قواها وضعفت تهيداتها ونظرت الى ابنها
نظرة حزن وحنو ثم ميلت عينها ببطء وبصوت يكاد
يكون سكونية قالت : « ابانا الذي في السموات ...
ليتقدس اسمك ... ليأت ملكوتك ... لتكن مشيئتك
كما في السماء كذلك على الأرض . اغفر لنا ذنوبنا »

وانقطع صوتها وبقيت شفتاها متحركة هنيهة
وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها . ثم اختلجت
وتأوهت وايض وجهها وفاضت روحها ، وظلت عينها
محدقتين بما لا يرى

عند ما جاء الفجر وضعت جثة مريتا البانية في تابوت
خشي وحملت على كتفي فقيرين ودفنت في حقل مهجور
بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهان الصلاة على بقاياها

ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج
والأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا
خارجاً بين أظافر البرد القارس والرياح الشديدة

وفي الليالي الطويلة كانت يبق ساهراً حتى ينام
والداه ثم يفتح الخزانة الخشبية ويأني بكتاب العهد الجديد
ويقراً منه سراً على نور مسرجة ضعيفة، متلفتاً يتحدث بين
الأوتة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك
الكتاب لأن الكهنة يهون بسطاء القلب عن استطلاع
خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » إذا
فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شببته بين الحقل المملوء بالحاسن
والعجائب وكتاب يسوع المغم بالنور والروح . وكان
سكوناً كثير التأملات يصفي لأحاديث والديه ولا يجيب
بكلمة ، يلتقي بآرابه الفتيا ويجالسهم صامتاً ناظراً إلى
البعيد حيث يلتقي الشفق بأزرق السماء وإذا ما ذهب
إلى الكنيسة عاد مكتئباً لأن التعاليم التي يسمعها من على

يوحنا المجنون

في أيام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح إلى الحقل
سائقاً ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفه ، مصغياً
لتغريد الشحارير وحفيف أوراق الغصون ، وعند الظهيرة
كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك
المروج الأخضر ، ويأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقي
من الخبز للعصافير ، وفي المساء عند ما ينزع المغرب دقائق
النور من الفضاء كان يعود إلى البيت الحجير المشرف على
القرى والمزارع في شمال لبنان ويجلس بسكينة مع والديه
الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيام شاعراً
بدنو النعاس والراحة معاً

وفي أيام الشتاء كان يتكى مستدفئاً بقرب النار سامعاً
تأوه الريح ونذب العناصر ، مفكراً بكيفية تتابع الفصول

الهضاب ^(١) فتفرقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً إلى صخرة يتأمل تارة بحمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات

كان ذلك النهار من أواخر أيام الصوم وسكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم أصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجيء عيد الفصح . أما يوحنا فثقل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين أيام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صوماً طويلاً عنده . وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبن والثمار المتباعدة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم والمأكول الشهية كان طبيعياً ، ومشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه ، لأنها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر » ونهاية حياته على الأرض

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا وأسراب الحمام تتطاير مسرعة والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحجم باشعة الشمس . وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه

(١) هو درغني في شمالي لبنان واسع الأراضي يدعى دير البشاع النبي يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالخليين

المنابر والمذبح هي غير التي يقرأها في الإنجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري

جاء الربيع واضمحلت الثلوج في الحقول والمروج ، وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في منعطفات الأودية وتجتمع أنهاراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة ، فازهرت أشجار اللوز والتفاح ، وأوردت قضبان الحور والصفصاف وانبثت الروابي أعشابها وزاهرها فتعجب يوحنا من الحياة بجانب المواقد ، وعرف بأن عجوله قد ملئت ضيق المرابض ، واشتأقت إلى المراعي الخضراء ، لأن مخازن التبن قد شحنت وزنايل الشعير قد نفذت . فجاء وحلها من معانفها وسار أمامها إلى البرية سائراً بعباءة كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك

سأله قائلاً : « هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه » فنظر إليه الراهب متكلفاً اخفاء حنقه وأجاب بحجبت « نعم رأيتها فهي هناك ، تعال وانظرها » فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فاذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالجبال يخفوها أحد الرهبان وفي يده نبوت مجلد بها كيفاً تخركت ، واذ هم يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو رواق الدير وصرخ بأعلى صوته « هو ذا الراعي الجرم قد قبضت عليه » فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه وانقباض سحنته وأحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة الى الغنيمة ، فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء « ماذا فعلت لا تكون مجرماً ولماذا قبضتم علي » فأجابه الرئيس ، وقد بانَّت القساوة على وجهه الغضوب وبصوت خشن أشبه بصير المناشير قال قد ارتعجت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسئول عما تخربه مواشيه » فقال يوحنا

ويرى قنب الكنائس في المدن والقرى المنورة على جانبي الوادي ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء الاجيال الى اورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع في الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : — هنا شفى العميان وأقام المقعدين . وهناك ضفروا له أكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه — في هذا الرواق وقف يكلم الجعوج بالامنال . وفي ذلك القصر كتفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه — في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها ، وفي ذاك وقع على الارض تحت أثقال صليبه ومرت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد . ويتمجد معه بالروح ، حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه ونظر حوله فلم ير عجوله فشى متلفئاً الى كل ناحية مستغرباً اختفائها في تلك المروج السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحنأ ، خطوط الكف رأى عن بعد رجلاً بلباس سوداء واقفاً بين البساتين ، فاسرع نحوه ولما اقترب منه عرف أنه أحد رهبان الدير حياه باحناء رأسه ثم

كنت أم غنياً فلا تستحلفني بالأشياء المقدسة لاننا أعرف منك بأسرارها وخفاياها وان شئت أن تقود عجولك من هذه المرائب فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع » فقال يوحنا بصوت مختنق : « اني لا أملك بارة واحدة يا ابتاه . فاشفق علي وارحم فقري » فأجاب الرئيس بعد أن مشط لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسما من حقلك وعد بثلاثة دنانير نخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب الإشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه وتهبط في الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة »

فسكت يوحنا حقيقة وقد أبرقت عيناه وانبسط محياه وتبدلت لوائح الاسترحام بملامح القوة والارادة فقال بصوت تخرج فيه نعمة المعرفة بعزم الشيبية : « هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه الى خزانة الدير المفعمة بالفضة والذهب ؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقراً ويموت المسكين جوعاً كيما يغفر الإشاع العظيم (٤ - عرائس المروج)

مستعظفا » هي بهائم لا عقل لها يا ابتاه ، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدي ، وهذه العجول ، فاتركني اقودها واسير واعداً إياك بالأاجي ، الى هذه المروج مررة أخرى » فقال الرئيس وقد تقدم قليلا الى الامام ورفع يده نحو السماء : « ان الله قد وضعنا ههنا ، وكل الينا حامية أراضى مختاره الإشاع العظيم فنحن نحافظ عليها ليلا ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموما آكلة ، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لاننا نبقى بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك »

وهم الرئيس بالذهاب فاوقفه يوحنا ، وقال متذللاً متوسلاً : « استحلفك ياسيدي بهذه الايام المقدسة التي تألم فيها يسوع وبكت لآحزانها مريم أن تتركني اذهب بعجولي . لا تكن قاسى القلب علي فانا فقير مسكين والدير غني عظيم فهو يسامح تهاولي ويرحم شيخوخة والدي » فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمنقال ذرة أيها الجاهل فقيراً

متمردة على الله. قد قدتموني بخيانة إلى هذا المكان المملوء
 بآثامكم، وكهجرتم قبضتم عليّ من أجل قليل من الزرع
 تستنبتة الشمس لي ولكم على السواء. ولما استعظفتمكم
 باسم يسوع واستخلفتمكم بأيام حزنه وواجاعه استهنأتم بي
 كأنني لم أتكم بغير الحماقة والجهالة. خذوا وابحثوا في هذا
 الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع غفورا. اقرأوا هذه
 المأساة السماوية واخبروني أين تكلم بغير الرحمة والرافة.
 أفني موعظته على الجبل، أم في تعاليمه في الهيكل أمام
 مضطهدي تلك الزانية المسكينة، أم على الجالجلة عند ما
 بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجنس البشري. انظروا
 يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها
 يتلوى المرضى على أسرة الوجداع، وفي حبوسها تقف
 أيام البائسين، وأمام أبوابها يتضرع المتسولون، وعلى
 طرقها ينام الغرباء، وفي مقابرها تنوح الارامل واليتامى،
 وأنتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل، وتتلذذون
 بثمار الحمول وخمر الكروم: فلم تزوروا مريضاً، ولم

ذئوب بهائم جائعة؟» فقال الرئيس هازأً رأسه استكباراً:
 هكذا يقول يسوع المسيح «من له يعطى ويزاد ومن ليس له
 يؤخذ منه»

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره،
 وكبرت نفسه، وتعالّت قامته عن ذي قبل، كأن الارض قد
 نمت تحت أقدامه، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستل
 الجندي سيفه للمدافعة، وصرخ قائلاً: «هكذا تتلاعبون
 بتعاليم هذا الكتاب أيها المرءون. هكذا تستخدمون اقدس
 ما في الحياة لتعميم شرور الحياة، فويل لكم إني أتاني (ابن
 البشر) ثانية ويخرب اديرتكم ويلقي حجارته في هذا الوادي
 محرقاً بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم، ويل لكم من
 دماء يسوع الزكية ودموع أمه الطاهرة إذ تنقلب سيلاً عليكم
 وتجرفكم إلى أعماق الهاوية. ويل وألف ويل لكم أيها
 الخاضعون لاصنام مطامعكم، الساترون بالاثواب السوداء
 اسوداد مكرهاكم، المحركون بالصلاة شفاهكم وقلوبكم
 جامدة كالصخور، الراكعون بتذل أمام المذابح وتقوسكم

المتشاحنة والانصاب اليابسة، صرخ الرئيس بهم قائلاً :
« اقبضوا على هذا الجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب وجروا
الى حجرة مظلمة من الدير فمن يجدف على مختاري الله
لا يغفر له ههنا ولا في الابدية » فهجم الرهبان على يوحنا
هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة
ضيقة واقفلوا عليه بعد ان انهكوا جسده بخشونة اكفهم
ورفس ارجلهم

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفه منتصر توفيق
العدو لاسره، ونظر من الكوة الصغيرة المظلمة على الوادي
المملوء بنور النهار فتهلل وجهه وشعر بلذة روحية تعانق
نفسه وطمانينة مستعذبة تمتلك عواطفه، فالحجرة الضيقة
لم تسجن غير جسده، أما نفسه فكانت حرة تتموج مع
النسيم بين الطلول والمروج، وأيدي الرهبان التي المت
اعضاءه لم تمس عواطفه المستامنة بجوار يسوع الناصري .
والمرء لا تعذبه الاضطرابات إذا كان عادلاً ولا تفنيه المظالم
إذا كان بجانب الحق، فسقراط شرب السم مبتسماً وبولس

تفتقدوا سجيناً، ولم تطعموا جائعاً، ولم تؤاوا غريباً، ولم
تعزوا حزيناً : وليتكم تكثفون بما لديكم وتقنعون بما
اغتصبت من جدودنا باحتياكم، فانتم تمدون اياديكم كما تمد
الافاعي رؤوسها وتقبضون بشدة على ما وفرته الارملة من
عمل يديها وما ابقاه الفلاح لايام شيخوخته »

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه
بفخر وقال بهدوء : انتم كثار ههنا وأنا وحدي افعلوا
بي ما شئتم فالذئاب تفرس النعجة في ظلمة الليل لكن
آثار دماءها تبقى على حصباء الوادي حتى يجي، الفجر وتطلع

الشمس »

كان يوحنا يتكلم وفي صوته قوة علوية توقف في
أبدان الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة،
ومثل غرابان جائعة في أقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً
واسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم اشارة
لمزقوه تمزيقاً ويسحقوه سحقاً، حتى اذا ما انتهى من
كلامه وسكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الاغصان

يأكلون الحصرم والآباء يضرسون. اذهبي أيتها المرأة الصالحة وصلي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد

إليه صوابه »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء أمام عجوله بجانب أمه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين. ولما بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل باضمحلال نور النهار، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن أمه هذه الكلمات : « كم عارصتني يا سارة عند ما كنت أقول لك أن ولدنا مختل الشعور : والان أراك لا تعترضين لأن أعماله قد حققت كل شيء ، ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين »

وظل يوحنا ناظرًا نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلونة بأشعة الشمس

رجم فارحًا. ولكن هو الضمير الخفي نخالقه فيوجدنا ، ونخونه فيقضي علينا

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت أمه إلى الدير مستعينة بعصاها ، وترامت على أقدام الرئيس تذرف الدموع وتقبل يديه ليرحم ابنها ويغفر جهله. فقال لها بعد أن رفع عينيه نحو السماء كهترفع عن العالميات » نحن نغفر طيش ابنك ونسامح جنونه ، ولكن للدير حقًا مقدسة لا بد من استيفائها. نحن نسامح بتواضعنا زلات الناس ، أما الإشباع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه » فنظرت إليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجمعتين بأيدي الشيخوخة ثم زعمت قلادة فضية من عنقها ووضعها في يده قائلة : ليس لدي غير هذه القلادة يا أبتاه فهي عطية والدتي يوم اقتراني فليقبلها الدير كفارة عن ذنوب وحيدتي » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبل يده شكرًا وامتنانًا » ويل لهذا الجيل فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الأبناء

حواله روائح البخور الطيبة وشعشت الشموع الكثيرة
وكان يوحنا في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزراعيين
على رواق مرتفع يتأمل بعينه الخريزيتين هذا المشهد،
ويتنهد بمرارة ويتأوه بغصات موحجة إذ يرى من الجهة
الواحدة ملابس حريرية مطرزة وواني ذهبية مرصعة ومباخر
ومشاعل فضية ثمنية. ومن الأخرى جماعة من الفقراء
والمساكين الذين أتوا من القرى والمزارع الصغيرة لإشاهدوا
بهجة هذا الفصح والاحتفال بتكريس الكنييسة. من الجهة
الواحدة عظمة ترتدى القطيفة والاطالس. ومن الأخرى
تعايسة تلتف بالاطار البالية. ههنا فئة قوية غنية تمثل الدين
بالتنظيم والتعزيم. وهناك شعب ضعيف محقر يفرح سرّاً
بقيامه يسوع من بين الأموات ويصلي بسكينة هامساً في
مسامع الأثير تهديدات حارة صادرة من أعماق القلوب
الكسيرة. ههنا رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه
شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدى وهناك رؤساء
وزراعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ربانها الموت.

٢

جاء عيد الفصح وتبدل الانقطاع عن المأكـ
بالاكتثار من المشهيات، وكان قد تم بناء الهيكل الجديد
المتعالي بين المساكن في مدينة بشرى كصرح أمير قائم
بين أكوخ الرعايا. وكان القوم يترقبون قدوم أحد الاساقفة
لتكريسه وتقديس مذبحه، ولما شعروا بدونه خرجوا
صفوفاً صفوفاً على الطرق وادخلوه المدينة بين تهليل الفتيان
وتسايح الكهنة وأصوات الصنوج وطنين الاجراس
والنواقيس، ولما تزلزل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش
واللجام الفضي قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام مترجحين
به بالقصائد والناشيد المصدرة بالمديح والمذيلة بالتبجيل،
حتى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الجبرية الموشاة
بالذهب، ولبس التاج المرصع بالجواهر، وتقلد عصا الرعاة
المنمقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول
الهيكل منغامع الكهنة الصلوات والتقاسيم، وقد تصاعدت

النور الاعلى . انظر من وراء القبة الزرقاء الى هذه الارض
التي لبست بالامس من عناصرها رداء . انظر ايها الحارث
الامين فقد خنقت اشواك الوعر اعناق الزهور التي انعمت
بذورها بعرق جينك . انظر ايها الراعي الصالح ، فقد
نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته
على منكبيك . انظر قدماؤك الزكية قد غارت في بطن
الارض ، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر
وانفاسك الحارة قد تضعضعت امام رياح الصحراء ، واصبح
هذا الحقل الذي قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر
الاقوياء ضلوع المنظر حين ، وتنزع اكف الظالمين ارواح
الضعفاء ... ان صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه
الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، ونواح
الحزوين لا تبعه اذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر ،
فالخراف التي بعثها من اجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر
تمزق بانيابها اجنحة الخراف التي ضممتها بذراعيك ، وكلمة
الحياة التي انزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب

وقد كسرت الامواج دفتها ، ومزقت الرياح شراعها ،
فلمست في هبوط وصعود بين غضب اللجة وهول العاصفة .
ههنا الاستبداد القاسي . وهناك الخضوع الاعمى . فايها
كان مولداً للآخر ؟ هل الاستبداد شجرة قوية لا تنبت
في غير التربة المنخفضة أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش
فيه غير الاشواك ؟

بهذه التأملات الاليمية وهذه الافكار المعذبة كان يوحنا
مشغولاً وقد بكل زنديه على صدره كأن خنجرته قد ضاقت
عن انفاسه فخاف أن يتمزق صدره خناجر ومنافذ . حتى إذا
ما انتهت حفلة التكريس وهم الشعب بالانصراف والتفرق
شعربان في الهواء روحاً تنتدبه واعظاً عنها ، وفي الجموع قوة
تحرك روحه وتوقفه خطيباً أمام السماء والارض أسر ارادته
فتقدم الى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلماء
وبصوت عظيم يستدعى المسامع ويستوقف النواظر صرخ
قائلاً :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة

يتمجد أبوك السماوي بأن تلفظ اسمه الشفاه الاثيمة والالسة
الكاذبة؛ وهل على الارض سلام وابناء الشقاء في الحقول
يفنون قوائم امام وجه الشمس ليطعموا فم القوي ويملاوا
جوف الظالم؛ وهل بالناس مسرة والبؤساء ينظرون بأعين
كسيرة الى الموت نظرة المغلوب الى المنقذ. ما هو السلام
يا يسوع الحلو؟ هل هو في اعين الاطفال التذكئين على
صدور الامهات الجماعات في المنازل المظلمة الباردة؟ أم
في اجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية يتمنون القوات
الذي يرمي به قسس الدير الى خنازيرهم المسمنة ولا يحصلون
عليه؟ ماهي المسرة يا يسوع الجليل أبان يشترى الامير
بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء، أو أبان نسكت
ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلعمان
ذهب أو سميتهم وبريق حجارة خواتمهم وأطالس ملاسهم.
أم أبان نصرخ متظلمين منددين فيبعثون الينا بأبائهم حاملي
علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتذسحق اجساد نساءنا
وصغارنا وتسكر الارض من مجاري دماننا... امدد يدك

وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس: لقد
أقاموا يا يسوع لجحد اسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحري
المسوج والذهب المذوب، وتركوا اجساد مختاريك الفقراء
عارية في الازقة الباردة، وملاوا الفضاء بدخان البخور
وطيب الشموع وتركوا بطون المؤمنين بالوهيتك خالية من
الخبز، واقعموا الهواء بالتراتيل والتسايب فلم يسعهم نداء
اليتامى وتهيدات الارامل... تعال ثانية يا يسوع الحي
واطرد باعة الدين من هياكلك فقد جعلوها مغائر تتلوى فيها
افاعي روعهم واحتياهم. تعال وحاسب هؤلاء القياصرة فقد
اغضبوا من الضعفاء ما لهم وما لله. تعال وانظر الكرم
التي غرستها يمينك فقد آكلت جذوعها الديدان وسحقت
عناقيدها أقدام ابن السبيل. تعال وانظر الذين ائتمنتهم على
السلام فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتجاروا ولم تكن
اشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة...
في اعيادهم واحتفالهم يرفعون اصواتهم بحسارة قائلين المجد لله
في الاعالي وعلى الارض السلام وبالناس المسرة... فهل

بقوة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء أعرف منا
باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم

وبينما هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتألف
كهدير الامواج ثم تضع في الهواء جاء أحد الكهنة وقبض
على يوحنا واسلمه للشرطة فقادوه الى دار الحاكم ، ولما استنطقوه
لم يجب بكلمة لانه تذكر أن يسوع كان سكوناً امام
مضطهديه فانزله الى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً
على الحائط الحجري

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم
بجنون وحيد قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته
ياسيدي ويتكلم عن اشياء غريبة لا حقيقة لها ، فكم سهر
الليالي مناجياً السكون بالفاظ مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة
باصوات مخيفة تقارن تعازيم العرافين المشعوذين . سل فتیان
الحی ياسيدي فقد جالسوه وعرفوا الانجذاب عاقلته الى عالم
بعيد ، فكأوا يخاطبونه فلا يجيب ، وإن تكلم جاءت اقواله
ملتبسة لا علاقة لها باحاديثهم . سل أمه فهي ادري الناس

يايسوع القوي واحمنا لأن يد الظلوم قوية علينا . أو ارسل
الموت ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل
صليبك الى ساعة مجيئك الثاني لان الحياة ليست حياة
عندنا بل هي ظلمة تتسابق فيها الاشباح الشريرة وواد تدب
في جوانبه الثعابين الخفية . ولا الايام أيام عندنا بل هي
أسيف سذينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا ويشهرها
الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبة البقاء الى الحقول ..
تراف يايسوع على هذه الجوع المنضمة باسمك في يوم
قيامتك من بين الاموات وارحم ذهم وضعفهم »

كان يوحنا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن
راض ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق
فهو يتكلم عنا امام السماء ، لاننا مظلومون . وذا يقول : هو
مسكون يتكلم بلسان روح شريرة . وذاك يقول : لم نسمع
قط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد أن نسمعه
الان . وآخر يهمس في أذن قريبه أحسست بقشعريرة
سحرية تهز قلبي في داخلي عندما سمعت صوته فهو يتكلم

كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفه عن متاع ابن آدم بطيب المرعى، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كثفي الوادي مردداً هذه الكلمات بتهديدات عميقة: — أنتم كشار وأنا وحدي فقولوا غني ما شئتم وافعلوا بي ما اردتم فالذئاب تفرس النعجة في ظلمة الليل ولكن آثار دماها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس

مقدمة تصير خاتمة

— بقلم صاحب جريدة المهاجر —

مقدمات الكتب تكون عادة في بداية الكتب لافي نهايتها. أما في هذا الكتاب فالمقدمة تصير خاتمة لانه لما سألني جبران أفندي خليل جبران مؤلف كتاب عرائس المروج أن أكتب مقدمة لكتابه هذا اشترط علي أن اتناسى في الكلام ما يدنى ويبنه من الصداقة وانظر الى مقدار ما في الكتاب من الفائدة، جاءلا المقدمة بمنابة انتقاد عادل للكتاب لا لكاتبه

(٥ — عرائس المروج)

بإسلاخ نفسه عن المدارك الحسية فقد شاهده مراراً ناظراً الى الأفق باعين زجاجية جامدة وسمعته متكلماً بشغف عن الأشجار والجداول والزهور والنجوم مثلما تكلم الأطفال عن صفائر الامور. سل رهبان الدير فقد خاصهم بالامس محتقراً أنسكهم وتعبدهم كافرأ بقداسة معيشتهم. وهو مجنون ياسيدي ولكنه شقوق علي وعلى أمه فهو يقولنا في ايام الشيخوخة ويدرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا، فترأف عليه برأفتك علينا واغتفر جنونه باعتبارك حنو الوالدين »

أفرج عن يوحنا وشاع في تلك النواحي جنونه فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله والصبايا ينظرون إليه بأعين أسفة قاتلات : لاسماء شؤرون غريبة في الانسان فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة

بين تلك المروج والروابي الموشاة بالأعشاب والزهور

لكن ذلك القارىء لا يزال من دون شك يترأى
 لنفسه في نفسه متكئاً بين خرائب قلعة بعلبك، حالمًا مع
 علي الحسيني في امور الحب التي تشغل بال كل مخلوق مدة
 طويلة من الزمن. أو متوجعاً مع مرثا البانية امام سرير
 المرأة الخالعة التي تلاعب الرجل الخسيس بضعفها وقام من
 بعد ذلك بتظاهر خبثاً ومكراً بالفضيلة ويمنع شهيدة وحشيته
 حتى من الحقوق الانسانية. أو لاطماً وجهه جزعاً مع بوحنا
 بقرب الاديرة التي يملك رهبانها ثلث اراضى جبل لبنان
 تعدى ولا يجبرون اللبنانيين على المهاجرة الى البلاد البعيدة
 طلباً للمعاش. أو متألماً مع جموع جائئة على الركاب باجواف
 طاوية ومعد خاوية امام بعض رجال الدين الذين لم يتركوا
 فى الارض فضة ولا ذهباً الا حملوها على اكتافهم وزينوا
 بها مستودعات المعابد أو خزائن الاديرة
 وقد يكون قارىء هذا الكتاب شعر بشيء من الغرابة
 والذهول عند رؤيته نفسه منتقلاً فجأة مع المؤلف من عالم
 الاحلام الجميلة والواهام التي نستحسنها لانها غير موجودة

فرضيات معه بهذا الشرط وطالعت الروايات الثلاث التي
 ألف كتابها منها. فأخذت رشاقة اسلوبه بمجامعي وكبرت لدي
 مقاصده حتى وجدت بدون نظر الى المؤلف على الاطلاق
 ان كتاباً مثل هذا الكتاب لا يجوز ان يقدم عليه شيء
 ولاجل ذلك هذه المقدمة تصير خاتمة
 من الروايات ما يكتب لاجل التفكهة فلا يكون لها
 غرض حي يبقى في ذهن القارىء من بعد قراءتها، ومنها
 ما يكتب لاجل الفائدة فتجسداً مقاصدها في ذهن قارئها وترسم
 على صفحة مخيلته المبادئ المقصود تعزيزها بها حتى بعد ان
 تكون تفاصيل الرواية قد انتسخت من الذاكرة وزالت
 مثال ذلك هذا الكتاب الذي قرأ القارىء الآن فيه ثلاث
 روايات مختلفة المواضع والظروف والمقاصد وربما يكون
 القارىء في هذه الدقيقة قد نسي اشياء كثيرة من تفاصيل
 كل منها. ربما لو سألناه ان يروي لنا باختصار ما جرى لمرة
 البانية أو علي الحسيني لفضل ان ينصحننا بقراءة الكتاب
 بدلاً من ان يشحن ذاكرته في استعادة ما قد قرأ

بالاجساد والفقر بالنفوس واسقط نفسها الشر يفقه من مقامها
 السامى ثم انقلب بكل اثم على نفسه يقول ان النساء شياطين
 خلقن لنا . ولا قال لنا جبران شيئاً جديداً عندما اخبرنا عن
 رهبان يغتصبون باسم الله وقد يسيه نتاج ايدي الفلاحين
 المساكين وبقايا تهديدات الارامل وقطرات دموع اليتامى
 عرفنا كل ذلك قبل ان نعرف جبران نفسه ولكن من
 ذا يلوم جبران على عدم اتخاذه موضوعاً جديداً لـلـلـو به
 الجديد . ان كان يوجد من يلومه فنحن نقول له أخطاء
 ياهذا في ملامك تخفف الملام . سيبقى هذا الموضوع العتيق
 جديداً ما زالت موحياته في الهيئة الاجتماعية قوية . وتظل
 الاقلام باكية من أجله حتى تجف دموع الساقطات
 المظلمات . وتنقرض هذه المدنية الفاسدة وتبدل شرائعها
 الناقصة . والذين يذمرون من إعادة تصوير تعاسة البؤساء
 عليهم ان يمتوا التعاسة أولاً . ومن لا يريد ان يسمع الشاعر
 متغزلاً بدعوى كثرة الغزل في ثنيات الكتب عليه ان
 يقتل تأثير الجال في القلب البشري . فالعصفور يبقى مغرداً

وتضعفنا النفوس الصغيرة عن طلبها فنعتذر عن ذلك
 بكونها بعيدة — يستغرب القارى انتقاله مع الكتائب من
 عالم هذه الاحلام اللطيفة الى عالم الحقائق الموحمة . الى تلك
 الحقائق التي يرى الانسان اخلاقه وعادات هيئته الاجتماعية
 الحالية مصورة فيها تصويراً مستقبلاً لانه صحيح . الى تلك
 الحقائق التي عندما لا يجد الانسان المصري ما يدفع به
 آلام جروحها يأخذ بضعف وتقصير يرمى كاتبها الجيد بتهمة
 الكفر والاحاد — يستغرب القارى هذا التنقل . ولكن
 هكذا هي النفس الفاهمة اسرار هذا الوجود تشبه الحمامة
 الوديعه التي تكون تارة على قمم الجبال وطوراً في اعماق الوادي
 ان جبران خليل جبران لم يكتب لنا شيئاً جديداً عندما
 كتب عن الحب السري المقدس الداخلى من حيث لا
 يرى الى اعشار قلب نشأ بين مراعي الغنم في صدر بدوي
 لم تكتحل عيناه بورود خدود النساء ، ولا لامست يده
 كهربائية اكف الصبايا . ولا قال لنا جبران شيئاً جديداً
 اذ روى حادثة امرأة اضلها رجل غنى من اولئك الاغنياء

ففي بطون الكتب وقام مقامها ضحيج الرسل الخفيف الذي
ترتعد من هوله النفوس . انا كيف ان نواب الله على الارض
المرسايين لايجاد السلام اصبحوا في اكثر الاحيان رسل
الوقية والخصام . انا كل ذلك بطريقة تظهر عليها ادلة
الاقتناع الصادق وبدلا من ان يقدم لنا هذه الحقائق الجارحة
على رأس السككين الدامي الذي فصلها به ، قدمها لنا على صفحة
نظيفة وصافية . وقال لنا بعد ذلك بسذاجة معنوية : انتم كشار
وانا وحدي فافعلوا بي ما شئتم . وقولوا غي ما اردتم . ان
الذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل ولكن آثار دمائها تبقى
على حصباء الوادي حتى يجي ، الفجر وتطلع الشمس
فللقارئ اللبيب ان يختار بعد ذلك لنفسه بين ان
يكون ذئبا قاتلا للنعجة في ظلمة الليل أم راعيا ينظر آثار
الدماء بعد مجي ، الفجر وتطلع الشمس

واخيرا - ما أجمل فكر المؤلف في اتخاذ مرعى المواشي
مراسح لرواياته ورعيان الغنم والبقر اباطالها وممثلين -
وكل ذلك في شمالي لبنان الارض التي اكثر من سواها قد نالت

ماطال الصيف والخزينة تظل بالكية حتى يجي ، الصباح . ولا
تهجم الشفقة في القلب البشري حتى تزول التعاسة من الارض
أما ذلك المجنون يوحنا الذي نعلم من استعدادات
أكثرية القوم الذين سيقروا أن هذا الكتاب أنه سيرقص بين
أحنائك العموم دورا أطول وأعجب من دور مرثا البانية أو
علي الحسيني فنعتمد عنه أمام الأكثرية بأنه مجنون . وإذا
ساء هذا الاعتذار عن يوحنا المسكين تلك الفئة العاقلة من قراء
هذا الكتاب تقول لهامع المثل السائر : مجنون يحكي وعقل يفهم
ان كلام يوحنا المجنون قد رده (الكفار والمجدون)
مرارا كثيرة . أولئك الكفار الذين أحبوا الدين أكثر من
أكثر رجال الدين . ولكن كان يوحنا المجنون أفصح جنانا
وأبلغ لسانا والطف تعبيراً وأقدر على الاقناع من كل من
تقدموه . أنه انا الداء الفاشي في الهيئة الاجتماعية باعتبار
الدين انا وجه الخطأ في طريقة استعمال الدين لا في الدين
نفسه الذي يحبه يوحنا المجنون كما يحبه يوحنا العاقل . انا ان
كلمة الحياة التي انزلها يسوع من فم الله قد توارت

من الضغط والاستبداد، وأكثر من سواها يؤمل أن تكون
شاعرة بالغناء وأكثر من سواها ستفعل في سبيل التحرر
الادبي واثارة باقي النواحي الراححة تحت اعباء العادات القديمة
القيمة بنور التمدن الحقيقي والارتقاء الاجتماعي الصحيح
ان اكبر المواطنين واجمل الافكار تتولد على اكف

الطبيعة في المروج الواسعة الفضاء، والطاهرة النقية الهواء.
ولا يقتضي للقارئ اللبيب الانقلاب ذهنه قليلا وبسرعة
على صفحة تاريخ هذا العالم حتى يتذكر بكل جلاء ان اسمى
الاعمال واعظمها لم تظهر للناس من سكان القصور الفخيمة
بل من رعاة المواشي في الحقول والمروج

فوسى وداود . ومحمد وعنترة . وجان دارك وجوثر قد
شربوا من خمر الحقول والمروج قبل ان سكروا واسكروا
الناس . واجمل ما في العهد الجديد ان يسوع المسيح نفسه
ولد في مذود البقر والغنم وظهر أولا من دون سائر البشر
لرعاة بيت لحم
أمين الغريب

تمت *

